KADHAYA TARIKHIA

قضايا تاريخية

ISNN :718X EISSN : 2802-6031

https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/228

الأنثروبولوجيا والتاريخ في الإدارة الاستعمارية في نيجيريا: نموذج بيرسي أماوري تالبوت

Anthropology and History in the Colonial Administration in Nigeria: Percy Amaury Talbot as a Case Study

د/ أبوبكر أحمد أباجي*

خريج برنامج التاريخ بمعهد الدوحة للدراسات العليا، قطر

باحث ومترجم بمركز حسن بن محمد للدراسات التاريخية، قطر

agbajeahmadabubakar@gmail.com

مجلد: 10 العدد: 01 السنة: جويلية 2025م الصفحات: 80-99

تاريخ الاستلام: 2025/07/15. تاريخ القبول: 2025/07/19 تاريخ النشر: 2025/07/26

ملخص:

تكشف هذه الورقة عن تقليد الإدارة الاستعمارية في محاولتها للتعرّف على مستعمراتها؛ عبر اللجوء إلى دراسة السكّان الأصليين، عاداتهم وتقاليدهم، وبنياتهم الاجتماعية والثقافية. من أجل تحقيق مصالحها الاستعمارية، ويشير أيضا إلى سبب فقدان الثقة في الأنثروبولوجيا لدى الشعوب البدائية. وفي هذه الأثناء تتقاطع تلكم الدراسات الأنثروبولوجية بدراسات تاريخية –وإن لم يكن يسعى المستعمر إلى كتابة هذا التاريخ بزعم أنّ هذه المستعمرات "بدائية لا تاريخ لها"– ومن ثمّ فإن أغلب ما يشار إليه على أنه تاريخ استعماري لهذه البلدان، إنما هو تقرير للاتصال الأوروبي بهذه الأجزاء، لا كتاريخ فعليّ لها، فإن بدا هذا المذهب مأزوما؛ فهناك حاجة إلى مراجعته بعين منصفة، لا مفرطة في حق المعرفة الاستعمارية ولا مفرّطة فيها . ترز الدراسة على على نموذج الأنثروبولوجي الإثنولوجي Percy Amaury Talbot بتمثيله حالة فريدة في الكتابة الأنثروبولوجية في نيجيريا، وبالإشارة إلى حضور الوعي التاريخي لديه عبر القراءة في دراساته، بل مثّلت دراساته لاحقا مصادر تاريخية، اتجه نحوها المؤرخون المحليون بالمراجعة والنقد وإعادة تقييم.

الكلمات المفتاحية : الأنثروبولوجيا، الإدارة الاستعمارية ، نيجيريا ، بيرسي أماوري تالبوت

Abstract : This paper reveals the colonial administration's tradition of trying to learn about its colonies by resorting to the study of indigenous people, their customs and traditions, and their social and cultural structures. It also points out why anthropology is distrusted by primitive peoples in order to fulfil their colonial interests. In the meantime, these anthropological studies intersect with historical studies – even if the colonialist does not seek to write this history by claiming that these colonies are 'primitive and historyless' – and thus most of what is referred to as the colonial history of these countries is a report of European contact with these parts, rather than an actual history of them, if this doctrine seems to be in crisis; there is a need to review it with a fair eye, neither excessive nor excessive colonial knowledge. The study focuses on the example of the anthropologist Percy Amaury Talbot by representing a unique case in anthropological writing in Nigeria, and by pointing out the presence of historical consciousness through reading his studies, but his studies later represented historical sources that local historians turned to for review, criticism and reassessment.

Keys words : Anthropology, Colonial Administration, Nigeria, Percy Amaury Talbot

-مقدمة (الإشكالية والدراسات السابقة وأهمية الدراسة الحالية):

إن المعرفة الأنثروبولوجية التي نبعت من المعين الاستعماري الصافي، تطرح في حدّ ذاتها إشكاليات عديدة، ظلت محل اهتمام الكثير من الدارسين، سواءً فيما يتعلق بموثوقيتها العلمية، أو من ناحية أهدافها المعلنة وغير المعلنة، ما جعلتها عرضة لنقد وتقييم دائمين، بل بلغ ذلك ببعضهم إلى نبذها أو عدم الاكتراث بها، وقد وافق المؤرخان النيجيريان توبين فالولا وإيه. إي. أفغبو مع رأي بيل فروبند في أن الفترة الاستعمارية لم تنتج إلّا القليل جدّا من المعرفة التاريخية الصريحة إذ إن الأنثروبولوجيا هو العلم الاستعماري السائد وقتها[1]. أما في حال فالولا، فأشار إلى أن ما ساد في النصف الأول من القرن العشرين كان في الغالب روايات إثنوغرافية وتسجيلات مباشرة للتقاليد الشفوية والسجلات المحلية، مع شيء يسير من الكتب التي ألفها مؤرخون متدربون،وما يمكن أن يعدّ إستوغرافية استعمارية لنيجيريا، لها العديد من العيوب بما فيها عدوى الهيمنة الأوروبية التي تتولد منها نظرة دونية من المؤلفين تجاه أولئك الذين يكتبون عنهم، بالإضافة إلى أن نهجهم في دراسة تاريخ نيجيريا كان نهجا "تصويريًا" حيث اعتمدت معلوماتهم في الغالب على مشاهداتهم أكثر مما اهتموا بالبحث عن التاريخ الفعلي للمجتمع الذي يدروسونه، ويذكر فالولا إن من جملة الانتقادات الموجهة إلى الأنثروبولوجي بيرسي أماوري تالبوت في كتابه "شعوب جنوب نيجيريا" هو اعتماده على مترجمين لا يملكون معرفة كافية باللغة الإنجليزية[2].

وفي دراسة أفيغبو حول الأنثروبولوجيا وإستوغرافية جنوب وسط نيجيريا، عني بالبحث في مناهج واهتمامات الأنثروبولوجيا والتاريخ في المنطقة المحددة منذ بداية القرن العشرين، فهو يوافق فالولا في أن الأنثروبولوجيا بلغت ذروتها في النصف الأول من هذا القرن، على الرغم من أنه يرى أن الأنثروبولوجيا

---

[1] - ينظر: Freund, Bill, The Making of Contemporary Africa: The Development of African Society Since 1800, London: Indiana University Press, 1984, Pg. 2. وينظر أيضا: Falola, Toyin, Trends in Nigerian Historiography, Transafrican Journal of History, Vol. 1, No. 2, 1981. Pg. 106. وفي: Afigbo, Adele E., The Anthropology and Historiography of Central-South Nigeria before and Since Igbo-Ukwu, Vol. 23, 1996. Pg. 1.

[2] - المرجع السابق: Toyin Falola, pg. 106.

الاستعمارية التي يبدو في الغالب من ظاهرها جدّ سهلة تضج بالكثير من الأخطاء والمغالطات، وقد عمل هذا التوجه الاستعماري المبكر على التأثير سلبا على المعرفة الأنثروبولوجية والتاريخ الناشئين في جنوب وسط نيجيريا، وأضاف أفيغبو إلى ذلك أن هناك جهودا ظهرت مع سبعينات القرن العشرين للقضاء على طغيان الأنثروبولوجيا الاستعمارية[3]. وفيما يخص دراسة جي. آي. جونز حول الأنثروبولوجيا الاجتماعية في نيجيريا خلال الحقبة الاستعمارية، فهي دراسة متميزة بكونها من إنجاز أنثروبولوجي هاو اشتغل مسؤولا استعماريا عايش التحيز الإداري فيما يتعلق بالأنثروبولوجيا والأنثروبولوجيين، وأصبح بعد الحقبة الاستعمارية عالما محترفا لهذا العلم، فكانت دراسته أشبه بشهادة شخصية عن مواقفه تجاه هذه المعرفة، فيرى بأن الأنثروبولوجيا لم تأت إلى الوجود إلا مع الاستعمار وقد كانت من قبل إثنوغرافيا وصفية وإنثروبولوجيا نظرية، ويقر جونز بأنّ نتائج تأثير الأنثروبولوجيا على الشعب النيجيري كانت وخيمة لدرجة أن القروي الإيبوي العادي[4] أصبح ينظر إلى الأنثروبولوجي على أنه يعرف ثقافته أكثر مما يعرف هو، وأصبح أي كتاب يكتبه ذلك الأنثروبولوجي عن قبيلة معينة بمثابة الكتاب المقدس لتلك القبيلة، وميثاق تاريخها وثقافتها التقليدية، على الرغم من أنها التقاليد الشفوية لتلك القبائل لم ترو في مؤلفات أولئك الأنثروبولوجيين إلا بصورة مشوهة، سعى إلى نقد أطروحاتها المؤرخون والروائيون الجدد[5].

وإنه بعدما درجت الدراسات السابقة في الإسفار عن طبيعة المعرفة الأنثروبولوجية والتقاطعات بينها وبين التاريخ في نيجيريا خلال الحقبة الاستعمارية، تأتي دراستنا الحالية في محاولتها للكشف عن العلاقة التكاملية بين حقلي الأنثروبولوجيا والتاريخ، لتجيب على التساؤلات التالية: هل يمكن أن تعتمد المعرفة التاريخية التي خلفتها الإدارة الاستعمارية مصدرا للتاريخ النيجيري؟ ما هو الطريقة التي يمكن أن يتعامل

---

[3] - المرجع السابق: A. E. Afigbo, 1996. Pg. 1-14.

[4] - نسبة إلى قبيلة الإيبوي في جنوب شرق نيجيريا.

[5] - ينظر: Jones, G. I., Social Anthropology in Nigeria during the Colonial Period, Africa: Journal of the International African Institute, Vol. 44, No. 3, 1974. Pg. 280-287.

بها المؤرخ مع المعرفة الأنثروبولوجية؟ ومن خلال الاطلاع على جهود الأنثروبولوجي تالبوت، كيف يمكننا الإدلاء بقراءة نقدية لإنتاجاته أو تقييمها تقييما يجعل منها مصدرا مكملا لمصادر التاريخ النيجيري؟

نبذة يسيرة عن Percy Amaury Talbot وكتاباته (1877–1945).

هو أنثروبولوجي ومؤرخ وإثنولوجي، ولد سنة 26 يونيو 1877، وتلقى تعليمه الجامعي في أكسفورد، وبدأ ارتباطه بغرب إفريقيا منذ عام 1902 عندما تمّ تعيينه مساعدا للمفوّض في لجنة "الحدود الإنجليزية الليبيرية" في ذلك العام. وفي عام 1904، شارك في بعثة ألكسندر جوسلينغ إلى بحيرة تشاد، وانضم في العام التالي إلى الإدارة الاستعمارية كمساعد مفوّض في منطقة بجنوب نيجيريا. وفي عام 1910 كان عضوا في البعثة الاستكشافية إلى شمال الكاميرون وأفريقيا الوسطى الفرنسية. وتمّت ترفيته في عام 1911 ليصبح مفوّضا لمنطقة في جنوب نيجيريا. وفي عام 1920 تمّ تعيينه مفوّضا للإحصاء ليتولى الإشراف على التعداد العشري[6] عام 1921 للمقاطعات الجنوبية لنيجيريا. وتمّت ترقيته كمقيم (مفوّض إقليمي) في عام 1921، وتقاعد بعد عشر سنوات[7].

يتّضح اهتمام الدكتور تالبوت العميق بقبائل جنوب نيجيريا من خلال أعماله العديدة المنشورة عنهم. أولها دراسته لقبيلة Ekoi، والتي نشرت في 1912 تحت عنوان "في ظلال الغابة (In the Shadow of the Bush)"، ويليه كتابه: "الحياة في جنوب نيجيريا (Life in Southern Nigeria)" عام 1923، وقدّم في هذا الكتاب وصفا مسهبا للحياة الدينية والاجتماعية لقبيلة Ibibio في جنوب نيجيريا، وظهر كتابه "قبائل جنوب نيجيريا (The People of Southern Nigeria)" في عام 1926، وبعده كتابه "بعض طوائف الخصوبة النيجيرية (Some Nigerian Fertility Cults)" عام 1927، و"قبائل مصب نهر النيجر

[6] - أي التعداد السكاني الذي تقوم به الحكومة البريطانية بعد كل عشر سنوات، وغالبا ما يستقطب جميع مستعمراتها.

[7] - Meek, C. K., 5. Amaury Talbot: 1877-1945, Man, Vol. 47, 1947. Pg.13.

(Tribes of the Niger Delta)" عام 1932. أمّا أشهر هذه الأعمال وأكثرها أهمية هو كتابه "قبائل جنوب نيجيريا" ويتكوّن من أربعة مجلدات تحتوي على نتائج التعداد المشار إليه سابقا والتحقيقات الإثنوغرافية والتاريخية التي ضمّنته. وعلى الرغم من أنّ نهج تالبوت كعالم أنثروبولوجي قد يبدو الآن على الطراز القديم، إلا أنّ هذه المجلدات تحتوي على قدر هائل من المعلومات القيّمة[8].

حصل تالبوت على الميدالية الفضّيّة للجمعية الملكية الإفريقية عام 1923 وحصل على درجة الدكتوراه في العلوم من جامعة أكسفورد عام 1930. وكان أيضا عالم نباتات متميّزا، وقدّم للمتاحف البريطانية والمتاحف الأخرى أكثر من 300 زهرة جديدة في مجال العلوم. ونشر المتحف البريطاني فهرسا للنباتات النيجيرية في عام 1913. ويشار إلى أنّ زوجته ساعدته في معظم أعماله الإثنوغرافية، ونشرت بنفسها عملا يتناول قبيلة Ibibio بعنوان: "أسرار نساء شعب بدائي (Women's Mysteries of a Primitive People)"[9].

مقدمة نظرية عن المعرفة الأنثروبولوجية والإدارة الاستعمارية: نيجيريا كحالة

وحتى قبل أن يتأسس الحكم الاستعماري، هناك تأكيدات على الحاجة إلى مثل هذه الدراسة، فقد كتبت Mary H. Kingsley منذ السنة 1899 على سبيل المثال: "لا تخفى الأهمية الإنسانية الكبرى لدراسة الدين والقوانين والوضع الاجتماعي للمُواطن الإفريقي...فمن الواضح جدّا أنه من واجبنا

[8] - المرجع نفسه، ص:14.

[9]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

معرفة الطبيعة الحقيقية لأولئك الأشخاص الذين نتعامل معهم الآن بعشرات الآلاف، حتى نتمكّن من خلال هذه المعرفة من حكمهم بحكمة"[10].

توصل Keesing بعد دراسته لدور الأنثروبولوجيا في الإدارة الاستعمارية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، في عام 1945 إلى الاستنتاج التالي: ...أنه أصبح من البديهي في المناطق الاستعمارية أن الإدارة الحكيمة والفعالة يجب أن تستند إلى دراسة متأنية للظروف المحليّة لمستعمراتها، وإلى فهم متعاطف مع السكان الأصليين[11]. وهذا ما حذّر منه الأنثروبولوجي الأوروبي Driberg في ورقة قدمها أمام الجمعية الأنثروبولوجية بلندن بنفس عنوان Keesing سنة 1926 حين نبّه إلى خطر الدراسات الحميمية أو المتعاطفة (الإنسانية) التي انتشرت لدى الأنثروبولوجيين في دراستهم للمجتمعات البدائية، ما يعود بالضرر على موضوعية الدراسة وقد لا ينفع العلم. ويقول: "...ندرس المجتمعات البدائية كما هي، وبدرجة أقلّ، كما كانت، نحن قادرون على فهم التنظيم الاجتماعي وكشف الهيكل الاقتصادي لمجتمعهم: موقفهم العقلي، ومعتقداتهم الدينية، وردود فعلهم على البيئة. وعندما نفعل ذلك، نكون قد قمنا بكل ما يتطلبه العلم النظري، وأمّا تطبيق هذا العلم فأمر آخر، يجب على عالم الأنثروبولوجيا أن يتركه لمختلف الإدارات الاستعمارية"[12].

عقد Diane Lewis مقارنة بين الأنثروبولوجيا والنظام الاستعماري عام 1973، أي بعد استقلال الدول المستعمرة وقيامها بمراجعة وتصحيح تواريخها وتقييم وجهات نظر الأوروبي فيها. وقد لاحظ Lewis انعدام ثقة العالم غير الأوروبي في الأنثروبولوجيا خلال السبعينيات، ومن ثمّ أعاد النظر في العلاقة بينها –الأنثروبولوجيا – وبين الاستعمار. فمنذ ظهور الأنثروبولوجيا إلى جانب توسّع أوروبا

---

[10] - ينظر: Kingsley, Mary H., West African Studies, London: Macmillan, 1899. Pg.414 وينظر أيضا: Afigbo, Adele E., Anthropology and Colonial Administration in South-Eastern Nigeria 1891-1939, Journal of the Historical Society of Nigeria, Vol. 8, No. 1, 1975. Pg.20.

[11] - Keesing, F. M., "Applied Anthropology in Colonial Administration" in R. Linton (ed.), The Science of Man in World Crisis, New York: Columbia University Press, 1945, p. 375 وينظر أيضا: Afigbo, 1975, Pg.20.

[12] - ينظر: Driberg, J. H., Anthropology in Colonial Administration, Economica, No. 20, 1927. Pg. 156.

واستعمار العالم غير الغربي، وجد علماء الأنثروبولوجيا أنفسهم مشاركين في النظام الاستعماري الذي نظّم العلاقات بين الغربيين وغير الغربيين، وربما يكون الأمر أكثر من مصادفة عندما نتأكّد من تأثّر الموقف المنهجي "الموضوعية" للأنثروبولوجي، وموقف المجموعة المدروسة بالنظام الاستعماري. ويرى Lewis أن تحليل دور الأنثروبولوجيا في الغرب يطرح ضوءا كبيرا على عدم الثقة في الأنثروبولوجيا[13].

وهذا نفس ما يعبّر عنه ليفي ستراوس عام 1966 في إشارته للمنحى التاريخي الذي بزغ خلاله الأنثروبولوجيا كنتيجة لعملية تاريخية جعلت الجزء الأكبر من البشرية موضع التبعية للآخر، والتي تعرض لها الملايين من البشر الأبرياء إلى نهب مواردهم وتدمير مؤسساتهم ومعتقداتهم، بينما تعرضوا هم أنفسهم إلى قتل وعبودية وأمراض لم يكونوا قادرين على مقاومتها[14].

ومع استقلال الشعوب المستعمرة سابقا، تم الازدراء بدور الأنثروبولوجيا وشدّ الخناق عليها. ما أدى إلى مأزق بين الأنثروبولوجيين والشعوب الذين درسوا سابقا، وقد حدّدت بعض البلدان الأفريقية المستقلة شروطا يجب على العالم الأنثروبولوجي الالتزام بها قبل إجراء أي دراسة، نظرا لإشكال التعامل مع التنمية[15].

وينبغي أن نشير هنا إلى أن أزمة الأنثروبولوجيا لا تقتصر على فقدان ثقة الشعوب بها، بل واجهتها أزمة تضييق الآفاق حتى في الإدارة الاستعمارية نفسها، ففي سياق نيجيريا على سبيل المثال، ننصدم أمام سياسة اللورد لوغارد[16] في اختيار ممثلين أنثروبولوجيين من ضمن الإدارة السياسية منذ عشرينيات القرن العشرين، ذلك أنه انتبه إلى أن نتائج الدراسات وإن كانت ذات قيمة معرفية كبيرة، إلا أنها ظلت

---

[13] - ينظر: Lewis, Diane, Anthropology and Colonialism, Current Anthropology, Vol. 14, No. 5, 1973. Pg. 582.

[14] - ينظر: Lévi-Strauss, Claude, Anthropology: Its achievements and future. Current Anthropology Vol. 7, No. 2, 1966, Pg.124-27.وينظر أيضا: المرجع السابق، Lewis, Diane, Pg.582.

[15] - المرجع السابق: Lewis, Diane, Pg.588-591

[16] - وهو أول رئيس استعماري لنيجيريا فترة ما بين 1914-1919، وعاش ما بين 1858-1945، وهو الذي عمل على الدمج بين المحميّتين الشمالية والجنوبية

عصيّة عن التطبيق، ولا يخدم الهدف الاستعماري بشكل مباشر. فعندما كتب نورتكوت توماس خمسة مجلدات عن قبيلة إيبو، ومجلدين عن قبيلة إيدو بطريقة إخبارية غير منتبه إلى أنه تم تعيينه للعمل جنبا إلى جنب مع إدارة جنوب نيجيريا، من أجل جعل الحكم الاستعماري في المنطقة فعّالا ومقبولا لدى الناس مثل ما كتب بتريدج وليونارد قبله. فليس من المستغرب أن لوغارد لم يعد تعيينه بعد انتهاء عقده عام 1913، على الرغم من اعتقاد بعض أعضاء "المعهد الملكي للأنثروبولوجيا" أن نوع الدراسة التي قام بها مرغوب فيه للغاية[17]. وقد انتقد دايموند ستانلي الأنثروبولوجيا السياسية في خروجها الجذري عن العرف الأكاديمي الراسخ ما يجعلها صانعة التاريخ المزيف للشعوب المدروسة[18].

إذن، يوجد هناك صنفان من الأنثروبولوجيين في الفترة الاستعمارية؛ أنثروبولوجيون باحثون، وأنثروبولوجيون إداريون، ويندرج تالبوت في هذا الصنف الثاني الذي يظل أعماله معرّضًا للمقت المحلّي وعدم الثقة وإن أسفرت عن معرفة، حيث مثّلت أداة للنهب الاستعماري والاستغلال الاقتصادي. فمن خلال هذا التقديم النظري عن علاقة الأنثروبولوجيا بالاستعمار، تتأمل دراستنا العلاقة التي تربط الأنثروبولوجي تالبوت بمجتمع جنوب نيجيريا الذي اعتنى به دراسة وتنقيبا، أوّلا؛ من خلال موقف الباحثين (المؤرخين والأنثروبولوجيين) المحليين منه، وثانيا؛ من خلال أهمّ القضايا التي طرحها في كتاباته ودورها في صياغة التاريخ النيجيري.

أهمية تالبوت في خدمة المعرفة الأنثروبولوجية والتاريخية في جنوب نيجيريا.

إن موقف الأنثروبولوجي من "الشعوب البدائية" (كما سموها) لم يكن مستقرّا، كما أنّ المعرفة التي ينتجها لم تزل عرضة للشكّ وحتى في حال لم تكن هناك معرفة بديلة لدى هؤلاء الشعوب. وبالعودة إلى نص

---

[17] - المرجع السابق: Afigbo, 1975, Pg.23.

[18] - Stanley Diamond, In Search of the Primitive: A critique of Civilization, New Brunswick, Nj: Transaction Books, 1974. Pg. 348-349.

Driberg حين قال: (نحن كأنثروبولوجيين...ندرس المجتمعات البدائية كما هي، وبدرجة أقلّ، كما كانت) فهو لا يلتفت إلى الماضي التاريخي لهذه الشعوب...فهي -في التقليد السائد- بلا تاريخ. نفس ما يشير إليه ليفي ستراوس حين يشير إلى أن هذه الشعوب لها وجود في التاريخ ولكنّها احتفظت بحكمة معيّنة عن دخول التاريخ في حياتهم[19]. فانطلاقا من هذا وذاك نتساءل عن أهمية تالبوت في خدمة المعرفة الأنثروبولوجية والتاريخية في نيجيريا؟ وهل ما قام به حقّا تتبع سمات شعوب جنوب نيجيريا من دون محاولة لتأسيس تاريخ لها؟ وكيف كان ينظر إليه المؤرخون المحليّون وما طريقة استفادتهم منه؟ وكيف انعكست نتائج دراسته على التاريخ النيجيري الحديثة؟ هذه الأسئلة هي التي ستفضي بنا إلى دراسة تالبوت وموقعه وأهميته في توجيه التاريخ النيجيري.

سيقودنا السؤال الأول -عن خدمة تالبوت للمعرفة الأنثروبولوجية والتاريخية في جنوب نيجيريا- إلى تتبع شهادات الباحثين عنه باختصار، حيث إننا نستشف خلال سيرته التي تمّ سردها، تلك الأهمية الكبيرة التي اكتسبها في دراسات مركّزة عن هؤلاء الشعوب. فدرس تالبوت عاداتهم وتقاليدهم وأوضاعهم وقوانينهم الاجتماعية، واهتمّ بمعرفة عددهم، وإن كانت هذه الدراسات تواجه دائما بأنها ظلّت في خدمة المستعمر، لا سيّما أن نتائج هذه الدراسات غالبا ما تقدّم كتقارير للإدارة الاستعمارية ليتمّ تنفيذ المشروع الاستعماري على وجه أدق، غير أن هذا وذاك لا ينفي أو ينقص من القيمة المعرفية التي مثّلتها تلك الدراسات في ما بعد. فقد جذبت البيانات الاثنوغرافية التي جمعها عن بعض الشعوب النيجيرية- مثل Ekoi و Ibibio- الاهتمام التاريخي[20].

يشير الباحث في هذا الصدد إلى أنه تأسست جائزة أنثروبولوجية موسمية باسم تالبوت "جائزة أماوري تالبوت للأنثروبولوجيا الأفريقية" منذ 1959، وكانت هناك تركيز من قبل منظمي هذه الجائزة على

---

[19] - Lévi-Strauss, Claude, The Scope of Anthropology, . Current Anthropology Vol. 7, No. 2, 1966b. Pg.46.

[20] - Fardon, Richard and Mitchell, Peter, Judges' Report on the Amaury Talbot Prize for 2000, Front Matter, Anthropology Today, Vol.18, No.2, 2002. Pg.2.

الدراسات المكتوبة حول نيجيريا نظرا لعلاقة تالبوت بنيجيريا وعنايته الخاص بدراسة شعوبها، ولكنها توسعت في ما بعد لتعتني بدراسات إفريقية عامة. وما يهمنا في هذا هو الإشارة إلى الإيكو الذي مثّله شخصية تالبوت في الدراسات الأنثروبولوجية والتاريخية خلال هذه الجائزة. ففي تقرير لجنة التحكيم عن الجائزة عام 2000 على سبيل المثال، شارك عدد من الباحثين والمؤرخين الأفارقة، وقُدّمت دراسات عدّة، فازت من بينها دراسة بعنوان: (Religious Encounter and the Making of the Yoruba "اللقاء الديني وصنع اليوربا") للباحث J.Y.D. Peel النيجيري، والتي تروي قصة العلاقات بين الجمعية التبشيرية الكنسية والديانة التقليدية والإسلام في مجتمع اليوربا الذي عرّف نفسه على هذا النحو خلال القرن العشرين؛ وكيف تمكّنوا من إنتاج نسبة عالية من النخبة الفكرية، وهو منغمس في هذه الدراسة على الأدلة الوثائقية، وقدّم مساهمة جدّية في التاريخ الإفريقي والأنثروبولوجيا على حدّ سواء. وبالإضافة إلى دراسات محليّة أخرى فإن تالبوت يمثّل إلهاما مهمّا للدراسات النيجيرية[21].

تاريخ الشعوب أو توثيق العلاقات مع الشعوب البدائية: تالبوت في جنوب نيجيريا

بالقراءة في الصفحات الأولى في مقال "أرض قبيلة Ekoi، جنوب نيجيريا" لتالبوت، والذي نشره في "المجلة الجغرافية" سنة 1910، قد يجزم القارئ خطأ على أن الكاتب لم يكن يعير تاريخ هذه القبيلة انتباها، حين يراه منشغلا في تقديم صورة دقيقة لأرضها في تلك الفترة، واصفا ما فيها من طرق بمسافاتها، وبحار بشواطئها وعمقها، وجبال بتضاريسها، وأشجار بأنواعها وكثافتها والحدود التي تميز أرضها عن أراضي القبائل الأخرى[22]. متتبعا في دراسته لأرض هذه القبيلة من تصوير منطقة إلى أخرى؛

[21] - المرجع السابق: Fardon and Mitchell, pg.2.

[22] - Talbot, Percy A., The Land of the Ekoi, Southern Nigeria, The Geographical Journal, Vol. 36, No. 6, 1910. Pg. 638-648.

شرقا وغربا، جنوبا وشمالا، ويصف علاقات الناس بالطبيعة فيها، فهو بهذا المنطق لا يقدّم أكثر من تاريخ علاقات ومشاهد تم توثيقها على نحو التقليد الهيرودوتسي في التاريخ.

ولكن بالقراءة المتأنية في هذا المقال، لا يمكن التغاضي عن حضور الوعي التاريخي في طرحه، يبرز ذلك في توثيقه للعلاقات التاريخية التي تربط هذه القبيلة بالقبائل الأخرى، وأيضا في مقارنته لبعض ممارساتها ببعض الحضارات القديمة، فحين يتحدّث عن إحدى الاحتفالات الدينية لهذه القبيلة، يرجّح أن تكون ثمة رابطة بينها وبين اعتقاد الفينيقيين القدامى وبينها وبين المصرية والرومانية واليونانية القديمة، بل ويمكن اعتبار ممارسة Ekoi الأقدم على الإطلاق لأنها احتفظت بشكلها الأصلي، وما أكثر مثل هذه المقارنات في هذا المقال، ما يطلعنا على هذا الوعي الذي تكوّن لديه من أن يكون لهذه القبيلة ولهذه الأرض تاريخ سابق وحضارة سابقة، حتى ليدفع به الإعجاب الشديد ببعض ممارسات هذه القبيلة ليرجح أن تكون أقدم من بعض الحضارات القديمة المعروفة[23]. وما قد يؤكّد ما ذهب إليه الباحث من كثرة إعجاب تالبوت بجنوب نيجيريا هو أنه بعد سرده لنصيحة اللورد كرو للمسؤولين الاستعماريين حيث حذرهم من المبالغة في وصف مزايا مستعمراتهم، وأن يهتمّوا بالتاريخ الطبيعي، يعقب قائلا: "ربّما يكون هناك ميل من الطبيعة البشرية للمبالغة في مزايا أي مكان يكون فيه المرء مهتما بشكل خاص، ومع ذلك، لا يوجد مكان شجّع واجباتي الرسمية مثل جنوب نيجيريا"[24].

وربّما يرجع خفوت هذا الوعي التاريخي إلى قلّة المصادر التاريخية عن هذه الشعوب، وربما انعدامها باستثناء ما سيركّز عليها المؤرخون المحلّيون في ما بعد من روايات شفوية، ووثائق مكتوبة قليلة ونادرة، ويقول تالبوت في مقدّمة كتابه "الحياة في جنوب نيجيريا" واصفا نوعية كتابته عن هذه الشعوب: "أوّد أن أقول لنقّادي بأن الكتابة من أعماق الغابة، بعيدا عن كل كتاب مرجعي، أو عن مجتمع أولئك الذين أثروا فقرهم من مخزن تعلمهم، هذا الكتاب لا يدّعي شيئا سوى أنه سعى جاهدا لرواية قصة أشخاص

---

[23]- المرجع السابق: Talbot, Percy A., The Land of Ekoi, Pg.648.

[24] - المرجع نفسه: ص:653.

غير معروفين من وجهة نظر أقرب –بقدر الإمكان– إلى وجهة نظرهم"[25]. ويمكن الاتفاق معه في هذا الفقر المعرفي لهذه الشعوب والذي أكسب دراساته أهمية كبيرة لتمثل في بعض الأحايين مصادر أولية للدارسين المحليين، ولكننا نعترض على ما ذهب من أن مقاربته أقرب من وجهة نظر محلية، ربما بما قاله ليفي ستراوس حين قال: "فقد كان افتراضا منهجيا مهمّا أن دراسة العالم "البدائي" أو غير الغربي يمكن أن تتم فقط من وجهة نظر الغربي أو الخارجي، والذي يقوم بتوثيق الاختلاف والمساعدة على تكوين فكرة عن ذلك العالم البدائي، والتي لا يتم بناؤها عادة من قبل البدائيين أنفسهم. غير أن ليفي ستراوس يستدرك ليشير إلى أنه؛ إذا كان على السكان الأصليين دراسة أنفسهم، فإنهم سينتجون الفيلولوجيا أو التاريخ وليس الأنثروبولوجيا"[26].

هذا ويتناول في كتاب "الحياة في جنوب نيجيريا" مواضيع أنثروبولوجية تقاطعت مع التاريخ في بعض مقارباتها، فتناول موضوع السحر والعرافة والوحوش، والاحتفالات، والجمعيات السريّة، والطقوس الدينية، والزواج، والنساء، والجنازة، والطرق في قبيلة Ibibio، إلى غير ذلك من ممارسات اجتماعية وتقاليد شكّلت تاريخ هذه القبيلة. وهو حين يلمّ بتفاصيل هذه المواضيع كلها، لا يلبث حتى يربطها بالهدف الاستعماري وحاجة إدارتها إلى استصلاح تلك الأراضي، أو تنميتها بصفته ممثلا سياسيا لتلك الإدارة أيضا، وتلك هي الخاصية التي لا تغيب في مقاربات ذلك الصنف الثاني –الأنثروبولوجيين الإداريين– الذين أشرنا إليهم في الفصال السابق.

فعلى سبيل المثال، يقول A.B. Rendle معلقا على ورقة أرض Ekoi بجنوب نيجيريا بعد أن قدّمها تالبوت: "لقد استمعت بسرور فائض إلى ورقة السيد تالبوت حول جنوب نيجيريا، وأوّد أن أهنئه هو وزوجته على نجاحهما في جمع البيانات حول هذه المنطقة الخصبة الرائعة ما أعطتنا فكرة عن

---

[25] - Talbot, Percy A., Life in Southern Nigeria: The Magic, Beliefs and Customs of the Ibibio Tribe, London: Routledge. 1923. Pg. 6.

[26] - ينظر: المرجع السابق، Lévi-Strauss, Claude, 1966. Pg.124-127 وينظر أيضا: المرجع السابق، Lewis, Diane, Pg.582.

وفرة الغطاء النباتي. من الواضح أنها جنة لعالم النبات"[27]. فهذه المداخلة تطلعنا بشكل واضح على شغف هذا النوع من الأنثروبولوجيا من الوقوف على محطّات الخصوبة، وعلى أماكن الثروة المحليّة لتغذية المشروع الاستعماري.

تالبوت وتعداد 1921: نموذج دراسة تالبوت وعلاقتها بالتاريخ النيجيري الحديث.

يظل اسم تالبوت في نيجيريا مقرونا بالحدث التاريخي المهمّ الذي تولّى الإشراف عليه، وهو تعداد 1921، والذي قدّم عقبه دراسة مفصّلة في كتاب بعنوان "قبائل جنوب نيجيريا: *رسم تخطيطي لتاريخيهم وإثنياتهم ولغاتهم مع تقرير عن تعداد 1921*[28]" في أربعة مجلّدات، أسعفت الدراسات الإحصائية اللاحقة من قبل الإدارة الاستعمارية والباحثين المحليين من بعدهم على حدّ سواء، سواء من حيث البيانات المقدّمة، أو المنهج المتبع، أو المعلومات والتحقيقات المقدّمة عن هذه القبائل. واكتسبت الدراسة أهمية من جانب أنها أسهمت في رسم الخطاطة السياسية في المناطق النيجيرية، وفي توزيع الثروة والتمثيل السياسي، وستنتج السياسات التي اتبعتها حربا أهليّة بعد الاستقلال والحكم الذاتي مع تعداد 1962.

ويمكن الإجابة على سؤالنا الثالث والرابع حول انعكاس نتائج تالبوت على الدراسات الحديثة، وكيفية استفادة الدارسين المحليين منها من خلال تتبعنا لهذا النموذج من دراسته. يشير Bersselaar إلى أنّ أغلب المؤرخين الذين كتبوا عن أفريقيا في القرن العشرين كانوا يستفيدون من البيانات الإحصائية الاستعمارية، ويوجّهون إليها نقدا عاما عندما يلجؤون إليها ويتمادون في استخدامها على أي حال. وهو في دراسته يدعو إلى النقد عن وعي بتتبع طرق إجراء هذه الإحصائيات فترة الاستعمار، وعبر

---

[27] - المرجع السابق: Talbot, Percy A., 1910, Pg.654.

[28] - Talbot, Percy A., The Peoples of Southern Nigeria. A Sketch of Their History, Ethnology and Languages, with an Account of the 1921 Census, Routledge, London, 1926.

معرفة أهدافها ومناهجها المتبعة، ما يؤدي إلى الاستفادة منها، ويسهّل عملية التمييز بين ما يمكن الاستناد إليها منها وما ينبغي التخلي عنها[29].

في السنوات 1866، و1871. و1881، و1891، و1901، و1911، أجريت تعدادات أكثرها عشرية في أجزاء متفرّقة في نيجيريا. وكان تعداد 1921 وحده الذي غطّى البلاد بأكملها؛ وتمّ إجراؤه على جزئين: "على مستوى البلدة" والذي أسفر عن نتائج دقيقة إلى حدّ ما، و"على مستوى المقاطعات" والذي أنتج نتائج غير دقيقة إلى حد ما بسبب العديد من الصعوبات، منها الكراهية التي يضمرها القبائل تجاه التعداد، وقلة الموظّفين الأوروبيين بسبب الحرب العالميّة الأولى[30]. وسيتبع تعداد 1921 في الفترة الاستعمارية، تعداد 1931 الذي لم يكن شاملا بسبب الظروف الاقتصادية في البلاد، والاضطرابات الضرائبية في جنوب نيجيريا وبعده تعداد 1950-1953 -الفترة التي تستعد المناطق الثلاث التي كوّنت البلاد للحكم الذاتي- والذي يسفر عن هيمنة الشمال على كفتي الشرق والغرب، فيتمّ باعتباره تخصيص تمثيل 50% للشمال. وواضحة أزمة تعداد 1962 بعد الاستقلال، والذي تمّ التركيز فيه على حقيقة أن المرافق الحكومية وعدد المقاعد البرلمانية المخصصة لكل منطقة يعتمد على حجم السكان. ما حوّل التعداد السكاني إلى مسألة سياسية من كونها إحصائية، ولم تكن النتائج مقبولة لدى الحكومات الإقليمية الثلاث وستعدّ ممهدا للحرب الأهلية -بيافرا- في نيجيريا[31].

تمّ الإسهاب في سرد سلسلة التعدادات التي جرت بالبلاد للإشارة إلى أهميّتها في توجيه التاريخ النيجيري الحديث. فقد استفاد مؤرخو جنوب نيجيريا من مجلدات تالبوت التي أشرنا إليها سابقا كنتاج هذا تعداد. فإذا كتب تالبوت عن جنوب نيجيريا بصفته مسؤولا استعماريا في تلك المنطقة فإن المؤرخ الأنثروبولوجي والمسؤول الاستعماري في المنطقة الشمالية C.K. Meek كتب بالمقابل تقريرا موازيا

---

[29] - Van den Bersselaar, Dmitri, Establishing the Facts: P. A. Talbot and the 1921 Census of Nigeria, History in Africa, Vol. 31, 2004. Pg.69.

[30] - Okolo, Abraham, The Nigerian Census: Problems and Prospects, The American Statistician, Vol. 53, No. 4, 1999. Pg.321.

[31] - المرجع السابق: Okolo, Abraham, Pg.322.

عن قبائل شمال نيجيريا في مجلّدين استنادا على نتائج هذا التعداد. وقد اكتسب هذا التعداد أهمية باعتبار أنها قدّم بيانات وفيّة عن القبائل، وهو ضمن المشروع البريطاني الكبير في تعداد كل المستعمرات التابعة لها بعد كل عشر سنوات، كما أنه ساهم في تقديم أولى خريطة إثنية لنيجيريا[32].

يذهب Dmitri إلى أن تالبوت لم يكن يعنيه التعداد فحسب، فبالنظر إلى المنهج الشمولي المتبع في كتابه عن قبائل جنوب نيجيريا، فهو مشروع أوسع في تعزيز المعرفة الاستعمارية، فيقدّم مثلا مسحا للمعادن وتقريرا للإثنوغرافيات، ما يوفّر على الإدارة الاستعمارية استغلالا مباشرا لتلك المعلومات ما فوق التعداد كما في تعزيز القوة الاقتصادية للإدارة. ويمكن الجزم بأن هذا التعداد ساهم في التكوين الاجتماعي للمستعمرات الأفريقية بوجه عام. وتقدّم دراسة Dmitri طرقا مثمرة أكثر في مقاربة التعداد الاستعماري والاستفادة منه كمصدر تاريخي، ويتوصل إلى أن طرق إنتاج هذا التعداد وأهدافه، تمثّل إشكالية هامة قد يستعصي تصحيحها ولكن الدراسة المتأنية لها وتتبع سياقاتها تؤشر إلى أماكن القوة والضعف في تلك المقاربة الاستعمار ومن ثم الاهتداء إلى المعرفة الصحيحة منها سوى ما أدلي بها من تعليقات تاريخية وإثنوغرافية، وبهذا المعنى ، يرى أن تحليله لتعداد عام 1921 قد يمثّل دراسة حالة مفصلة للعملية الاستعمارية في تشكيل الاختلافات الثقافية واللغوية لمستعمراتها[33].

في الختام، فإن النظر إلى تعداد 1921 يتباين من باحث إلى الآخر، ولكن النقطة المتفقة عليها هي أنه الأول من نوعه الذي أسفر عن نتيجة محتملة للدولة بأكملها، فهو بهذا يمثّل الأساس لكلّ التعدادات اللاحقة، وهذا ما أكسبه تلك الأهمية المشارة إليها. وعلى ما في نتائجه من تهم وأهداف مضمرة بالإضافة إلى الانتقادات التي وجّهت إليها باعتباره المؤسس لمشاكل اجتماعية وثقافية جراء إخفاقه. فإنه ظلّ مرجعا أساسيا لكل إحصائي يتناول مسألة التعداد الوطني في نيجيريا، مستفيدا من بياناتها المستوفية الوافرة التي ظلّت تخدم الحاجة المحليّة بعد الاستقلال. علما بأن التعدادات اللاحقة أسفرت

---

[32] - المرجع السابق: Dmitri, Pg.78-80.

[33] - المرجع نفسه، ص: 76.

عن أزمات أشد صرامة من أزمة تعداد 1921، ألدّها تعداد 1962 الذي أسفر عن فشل المشروع الوطني وصعوبة إنشاء هويّة وطنية جامعة بين المناطق المكوّنة للدولة، وقد أشرنا إلى ذلك سابقا.

خاتمة:

تنجلي خلال طرحنا العلاقة الضمنية التي تربط الدراسات الأنثروبولوجية بالمعرفة التاريخية في الإدارة الاستعمارية، وإن ظلّ أغلب الدراسات بنيوية تهتم بتناول الثوابت الأنثروبولوجية أكثر من اهتمامها بالتحولات التاريخية. فلم يكن همّ تالبوت أو غيره من الأنثروبولوجيين كتابة تاريخ الشعوب المدروسة، بقدر ما عنوا بتقديم وصف دقيق لأراضيهم وعناصرها، ولعادات وتقاليد وممارسات اجتماعية وثقافية، من احتفالات وطقوس دينية، كلها تسخّر بالدرجة الأولى لتغذية الهدف الاستعماري في سياسة هذه الشعوب البدائية وربما لنهب خيراتها. ولكنهم حين يقومون بذلك يتكوّن لديهم الوعي التاريخي ويبرز ذلك في كتاباتهم. أضف إلى ذلك أنّ نتائج دراساتهم مثّلت للمؤرخين المحليين مراجع اعتنوا بها وأعادوا تقييمها.

يمكن القول بأن تالبوت يحتلّ موقعا خاصا بالنظر إلى أهميته أولا كمسؤول استعماري تعامل مع القبائل عن قرب. وثانيا؛ كأنثروبولوجي هاو متفان كتب عن هذه القبائل وقدّم بيانات أوليّة من دون الاستناد إلى مراجع مسبقة إلا في حالات نادرة. إضافة إلى أن تعداد 1921 الذي أشرف عليه كان له تداعياته على تاريخ نيجيريا الحديث، وله تأثيراته على الأزمة السياسيّة والثقافية والاجتماعية التي تزرأ تحتها الدولة. غير أنّ الباحث يشدّد على ما ذهب إليه من أن كل ما وجّه إلى تلك الكتابات الأنثروبولوجية من نقد، لا يكفي دليلا على محو قيمته المعرفية.

ويمكن أن نلخص النقاط التي توصلّت إليها هذه الدراسة فيما يلي:

- تعدّ العلاقة بين المشروع الاستعماري والأنثروبولوجيا علاقة وثيقة، إذ تمثل الأخيرة أداة أساسية تساعد المسؤولين الاستعماريين على فهم مستعمراتهم بغية التحكم بها واستغلالها.
- لم يهدف الأنثروبولوجيون بالأساس إلى كتابة التاريخ الفعلي للشعوب التي كتبوا حولها، ومن ثمّ عنوا بدراسة بنيات تلكم الشعوب الاجتماعية والثقافية وغيرها من دون الاكتراث بالتحولات التاريخية لها.
- يمثل تالبوت حالة نموذجية للمسؤول الاستعماري والأنثروبولوجي الذي لم يغب عنه الوعي التاريخي على الرغم من الرؤية الاستعمارية التي تتعارض مع توجه كهذا.
- ومع ما لأعمال تالبوت من خلفية استعمارية، فإن قيمتها المعرفية لا يمكن البت فيها إلا من خلال قراءة نقدية منصفة، ويقاس على ذلك أعمال الأنثروبولوجيين الآخرين.
- أخذ الكثير من الدارسين المحليين وغيرهم منذ النصف الثاني من القرن العشرين مسؤولية تصحيح مغالطات الأنثروبولوجيا التي طالما نصبت نفسها سجلا تاريخيا لشعوب نيجيريا.

References:

Afigbo, A. E. (1975). Anthropology and Colonial Administration in South-Eastern Nigeria 1891-1939. *Journal of the Historical Society of Nigeria*, *8*(1), 19–35.

Afigbo, A. E. (1996). The Anthropology and Historiography of Central-South Nigeria before and Since Igbo-Ukwu. *History in Africa*, *23*, 1–15.

Diamond, S. (1974). *In Search of the Primitive: A critique of Civilization*. New Brunswick: NJ: Transaction Books.

Driberg, J. H. (1927). Anthropology in colonial administration. *Economica*, *20*, 155–171.

Falola, T. (1981). Trends in Nigerian Historiography. *Transafrican Journal of History*, *1*(2), 97–112.

Fardon , R., & Mitchell, P. (2002). Front Matter: Judges' Report on the Amaury Talbot Prize for 2000. *Anthropology Today*, *18*(2).

Freund, B. (1983). *The making of contemporary Africa: The development of African society since 1800*. Bloomington: Indian University Press.

Jones, G. I. (1974). Social Anthropology in Nigeria during the Colonial Period. *Africa: Journal of the International African Institute*, *44*(3), 280–289.

Keesing, F. M. (1945). Applied Anthropology in Colonial Administration. In *The Science of Man in World Crisis*. New York: Columbia University Press.

Kingsley, M. H. (1899). *West African Studies*. London: Macmillan.

Lévi-Strauss, C. (1966). Anthropology: Its achievements and future. *Current Anthropology*, *7*(2), 124–127.

Lévi-Strauss, C. (1966b). The scope of anthropology. *Current Anthropology*, *7*(2), 112–123.

Lewis, D. (1973). Anthropology and colonialism. *Current Anthropology*, *14*(5), 581–602.

Meek, C. K. (1947). 5. Amaury Talbot: 1877-1945. *Man*, *47*, 13–14.

Okolo, A. (1999). The Nigerian Census: Problems and Prospects. *The American Statistician*, *53*(4), 321–325.

Talbot, P. A. (1910). The Land of the Ekoi, Southern Nigeria. *The Geographical Journal*, *36*(6), 637–654.

Talbot, P. A. (1923). *Life in Southern Nigeria: The Magic, Beliefs and Customs of the Ibibio Tribe*. London: Routledge.

Talbot, P. A. (1926). *The Peoples of Southern Nigeria. A Sketch of Their History, Ethnology and Languages with an Account of the 1921 Census*. London: Routledge.

Van den Bersselaar, D. (2004). Establishing the facts: PA Talbot and the 1921 census of Nigeria. *History in Africa*, *31*, 69–102.